الأكراد من سدة الرئاسة إلى سدنة الشعر انسداد أفق وسعته القصيدة

ديانا جبور

يعتبر الأكراد ثاني قومية في سورية بعد العرب، ويشكلون حوالي 8% من سكانها، و6% من مجموع الأكراد في العالم، لكن عددهم الكبير نسبيًّا لم يترافق لاسيما في النصف الثاني من القرن العشرين بحقوق، ومن باب أولى، بمواقع وامتيازات تتناسب مع حضورهم العددي، فكانوا عرضة لواحدة من أغرب انتهاكات حقوق الإنسان، ومنها الحق بالاحتفاظ بالجنسية أو التخلي عنها. فمع إعلان العزم على إجراء إحصاء قرقوشي في العام 1962، فقد مائة وخمسون ألف مواطن سوري ينتمون إلى القومية الكردية جنسيتهم السورية، لتبدأ بعد ذلك سلسلة من المآسي الفردية. وقد تحولوا من مكون أساسي وطبيعي من مكونات المجتمع السوري إلى فئة مهمشة ومضطهدة، ومن بعد مثيرة للريبة والشكوك، وعرضة للإقصاء والإلغاء ليس فقط بالمعنى الثقافي، بل وحتى على المستوى الإجرائي والتوثيقي.

لأن الإحصاء المشار إليه كان يهدف إلى تعريب البلد عبر سياسة تطهير من العنصر الكردي، فقد اختصت الإجراءات بالتشدد والقسوة والكيفية، حيث جُرّد من جنسيته السورية كل كردي لم يتواجد في المنطقة التي يشير إليها سجله المدني. فكان أن حُرم من جنسيته السورية رئيس الأركان (منصب يوازي وزير الدفاع) الجنرال توفيق نظام الدين، وأخوه النائب الوزير السابق عبد الباقي نظام الدين لأنهما، بطبيعة الحال، كانا قد استقرا في دمشق لممارسة مهامهما ومسؤولياتهما.

هذا الإحصاء حوّل شريحة كبيرة من السوريين إلى أجانب ووسم أبناءهم بلعنة المكتومين في بلد ينتمون إليه ولا يعرفون سواه. لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فقد بدأت بعد تطبيق الإحصاء وسحب الجنسية سلسلة تالية من التجريد من الحقوق، وأولها التجريد من حق التمتع بالملكية، وذلك تنفيذًا لقرار استملاك أراضي الأكراد للعام 1965، بالتزامن مع التوجه للتأميم والإصلاح الزراعي.

وأضفى المؤتمر القطري الثالث لحزب البعث المنعقد العام 1966، على هذا الإجراء

هالة أمنية ووطنية قطعت الطريق على الاعتراض، حيث أوصى في مقرراته اعتبار الأراضي الموازية للحدود التركية أملاك دولة حفاظًا على الأمن.

أمن وإصلاح زراعي، والمحصلة تجريد الأكراد من أراضيهم وتوزيعها على الفلاحين العرب الذين تمَّ استقدامهم من حلب والرقة ليشكلوا ما سمي بالحزام العربي لتزنير الأكراد، الذي امتد على مدى 300 كلم وبعرض راوح بين 10 إلى 15 كلم.

لائحة الممنوعات

مثل كل قانون ستحدد اللوائح التنفيذية نطاق تطبيقه، وقد كانت هذه اللوائح مع قانون سحب الجنسية أشد صرامة وتعسّفًا، فقد حُرم الكردي غير المجنّس من حق السفر ليس فقط إلى خارج القطر، بل وفي داخله، حيث مُنع عليهم الإقامة في الفنادق إلَّا بموافقة الأمن السياسي، مما اضطرهم إلى الهجرة تحت بند اللجوء.

وحُرم المكتومون من ممارسة مهن محددة مثل الطب والمحاماة، أو من التوظيف، وقبلها من الدراسة إلَّا بوثيقة من المختار وعلى مسؤوليته، أما من استطاع اجتياز امتحان الشهادة الثانوية فلن يتمكن من الحصول على وثيقة النجاح التي تمكنه من الالتحاق بالجامعة.

كما حُرموا من حق الترشح والتصويت لأي من المؤسسات التشريعية أو التنفيذية بالتوازي مع ركود الحياة السياسية العامة في سورية واحتكارها من قبل حزب البعث. وهذا دون شك إجراء قاسٍ لأي أقلية، فكيف الحال إن سبق لها وقدمت لبلدها أول رئيس للدولة العام 1932، ونعني به محمد علي العابد، ثم فوزي سلو ما بين العامين 1951-1953، ولا ننسى رئيس الوزراء حسني البرازي (1942-1943)، وقبله حسني الزعيم بانقلابه الشهير العام 1949.

أما على صعيد النضال الوطني، فكم كان سيبدو تاريخ سورية الحديث باهتًا ودون عنفوان، لولا قرار وزير الدفاع الكردي يوسف العظمة خوض معركة ميسلون، وإن كان يعرف مسبقًا أنه سيهزم فيها، لكنه فضل الشهادة على أن يُقال إن دمشق فتحت أبوابها للغازي دون مقاومة.

انتماء لم ينفه أحد في المناهج المدرسية والجامعية أو في سواها من منابر رسمية أو شبه رسمية. لكن بالمقابل لم يسلط أحد الضوء عليه أو يقاربه فيرخي ولو ظلال شك على جدوى القرار بتعريب الأكراد فكيف الحال وقد تم استبعادهم وتهميشهم.

أما بالنسبة لعموم الأكراد، المتمتعين بالجنسية السورية، أو المحرومين منها، فقد

مُنعت عليهم الاحتفالات الكردية ولاسيما عيد النيروز، أو تعلم وتعليم اللغة الكردية، أو التحدث بها، أو إطلاق التسميات الكردية على المواليد الجدد. كما قامت الدولة بمحاولة إضافية لطمس الذاكرة الشعبية بتغيير أسماء المواقع والبلدات من الكردية إلى العربية، فصارت عاصمة الأكراد قامشلو القامشلي، وديريك المالكية، وتل شاغر بازار تل حطين، وكوباني عين عرب، وآمودا عامودا، وهي منطقة تابعة للقامشلي اشتهرت بشعرائها حتى أطلق عليها بلد المليون شاعر.

الرفض شعرًا

الشعر ديوان العرب. وإلى الميدان الذي تبارى فيه العرب وتباهوا أقدم الأكراد، خاصة الجيل الذي حصد المفاعيل المأساوية للتهميش، منجزًا لافتًا ومتفوقًا (أقله على صعيد الكم) على ما أضافه المبدعون السوريون العرب، لاسيما في المشهد الشعري الحديث وبخاصة شعر النثر في الربع الأخير من القرن العشرين، أي بعد اختمار وتفاعل القرار بسحب الجنسية والتضييق على الأكراد في سورية.

ففي حين كان سليم بركات يتصدر المشهد الشعري السوري الكردي خلال السبعينيات، زخرت اللوحة بالعشرات من الشعراء الأكراد الذين كتبوا بالعربية، مثل: جوان تتر، معشوق حمزة، منير خلف، هوشنك بروكا، كمال نجم، أحمد الحسيني، سليمان آزر، ديا جوان، سليم بجوك، مروان عثمان، سرحان عيسى، عارف حمزة، ياسر محمود، أديب حسن... وسواهم من الأسماء التي سنتوقف أمام نماذج من منجزها الإبداعي.

لتدفق المبدعين الأكراد على المشهد الشعري العربي النثري عدة عوامل نجملها بالتالي:

- العامل الأول بنيوي وتاريخي. فالأكراد في سورية لم يطالبوا عبر تاريخهم بالانفصال أو الاستقلال عن سورية، على العكس، فقد تمحورت مطالبهم على حقهم بالمواطنة والاندماج في المجتمع السوري مع الاعتراف بخصوصيتهم الثقافية، مما جعلهم يواجهون قرار الإلغاء بإنتاج المزيد من خيوط توطد لحمتهم بالمحيط العربي، كما توثق تماهي المحيط بهم.
- اختيار الشعر لم يأت عبثًا ودون دلالة، فالشعر كما قلنا ديوان العرب، وها هم يكادون أن يستأثروا بفهرسه المعاصر، مما يؤكد على شرعية الحضور الكردي ويمدهم بعناصر قوة وتميز.
- في الانحياز لشعر النثر، انحياز مضمر للحداثة والتجديد بكل حمولاتها المدينية

والتي يمكن أن تشكل طوق إنقاذ محتمل للمهمشين من دوائر الفعل.

- النأي عن مدارس الشعر التقليدية، سوى أنه يقصي إرثًا يمتد إلى الجاهلية وأهم عناصر قصيدتها التباهي بالأصل اليعربي، فهو يتطلب سوى الثراء الثقافي والمعجمي تماهيًا مع موسيقى لغة ربما يصعب تحققها لمن لم تكن لغته الأم ولغة حياته المحكية الحميمة.
- تعثر التميز في ميادين إبداعية أخرى، فإذا أخذنا الفن التشكيلي مثالًا لوجدنا أن بيئة الجزيرة السورية ذات المفردات الجغرافية المحدودة لم تقدم خيارات محرضة ومتجددة للفنانين التشكيليين، ومن تابع في هذا الميدان رغم كلفته المالية العالية إنما فعل وقد استعار مفردات وثقافة بيئة أخرى كما الحال مع الفنان عمر حمدي الشهير عالميًّا بمالفا.
- ما بين الشعر المنثور والقرآن الكريم تراكب استفاض النقاد في تفكيكها، ولا يشكل الأكراد، وهم المسلمون في غالبيتهم الساحقة، استثناء عن هذه القاعدة. بل إن أحد كبار شعراء الصوفية هو الملا أحمد خاني (1670-1706) الذي فتحت تجربته الصوفية الآفاق أمام الشعراء الكرد «على تأمل الذات والعالم من حولهم مما عمل على تجريب الإيقاعات السريعة والابتعاد عن صرامة الإيقاع الشعري».
- أعتقد أن سليم بركات لعب دورًا مفصليًّا في توجه الأجيال التالية إلى شعر النثر لما حققه من حضور استثنائي انتزع الاعتراف والمكانة رغمًا عمن يريد أو لا يريد.

أجزم أن تأثير الرواد على أبناء مناطقهم تأثير استثنائي. إنه الأب الروحي الذي يلهم الأبناء نموذجه، فيحاولون محاكاته، ومن ثم تجاوزه / قتله إبداعيًّا.

خريطة الإبداع في سورية تقدم نماذج تغري بالقياس، إن لم نقل الإطلاق والتعميم. فمن السلمية التي خرج منها محمد الماغوط وعلي الجندي خرجت أفواج متتالية من الشعراء. ومن الرقة التي شمخت باسم عبد السلام العجيلي فقد طغى على مشهدها الإبداعي المنجز القصصي والروائي، وكذا اللاذقية التي احتضنت حنا مينة، فقد امتازت بوفرة روائييها، ومثلها إدلب التي أنجبت الكاتب الساخر حسيب كيالي، فكان أن احتكرت المحافظة معظم كتاب الأدب الساخر لاحقًا..

وسليم بركات أيقونة ثقافية، بل مؤسسة ثقافية، تغري الكثيرين بالمحاكاة، أو الانضواء تحت ظلها. باسمه تقام الدورات الشعرية والمهرجانات وتمنح الجوائز وتدبج قصائد المديح، ولا أقول قصائد المديح مبالغة بل واقعًا فعليًّا دشنه محمود درويش بقصيدة (يتذكر الكردي) المهداة إلى سليم بركات وفيها يقول:

«ليس للكردي إلا الريح تسكنه ويسكنها

وتدمنه ويدمنها، لينجو من

صفات الأرض والأشياء

..

باللغة انتصرت على الهوية

قلت للكردي، باللغة انتقمت من الغياب»

سمات عامة

أدخل الشعراء الأكراد خصوصياتهم الثقافية فأضفوا غنًى متمردًا على شكل يقبل أصلًا هذا الانعتاق.

إن الثقافة الكردية الشفهية أو المكتوبة تنهل من أساطير مغناة، يصفها الباحث نور الدين زازا: «أن الأبيات في الملاحم الكردية المغناة ليست موزونة وهذه براعة فلكلورية. القافية في القصص الشعبية المغناة ليست غنية وقوية وكلاسيكية. هي لا تلتفت إلى القواعد العربية والفارسية، في الغالب لا تكون الأبيات موزونة، ثمة أبيات طويلة جدًّا، وأخرى قصيرة جدًّا ولا غرابة في الأمر، ففي جميع أغاني الحروب والقصص هذه هي الأصول المتبعة حيث نفس المغنّي هو الذي يحدد الوزن. حسب أصول الشعر الكلاسيكي يعد هذا النمط غير ذي قيمة، لكن قياسًا إلى الأدب اليوم، مقارنة بالشعر الحر تصبح هذه الملاحم المغناة إرثًا ثمينًا..»(3)

سمات انعكست لاحقًا على شعر الأكراد النثري العربي، حيث نجد تفاوتًا جريئًا في طول المقاطع وأوزانها كما سنجد في قصيدة تغيير كمال نجم وفيها يقول:

«قبل عام أيضًا

كانت ضيعتنا هنا

مررتُ من هذا الزقاق، وكانت رائحة الطين تنهال من البيوت

لمحت عيناي هذه القطة السوداء، وهذا الطفل كان في السابعة.

كانت دارنا هنا، أبوابنا مشرعة، ووالدي يصلي الظهر، ثوب والدتي كان أخضر»

تحرر الشعراء الأكراد في قصيدة النثر من ألفة المعاني ورسوخها فوظفوا المفردات في قالب إحيائي وإيحائي كما نقرأ لدى محمد عبدو:

«الشّيبُ الحكيمُ يتدلّى من حولي

الفناءُ، الأعينُ، الأميرُ الغائمُ

وكذا كنتُ كقامةٍ مالحة، أنتفُ البحيرةَ قبالتي بالنظر

أنتفُ معها ضبابَ حكايةٍ عشتها

مُذ كنتُ فراشةَ ماء»

أو لدى شهناز شيخة:

«أنا التي سرقوا أساطير الجن من كبدي

فصنعت من عطر الخيال

منازل للريح...

... خبزًا لأطفالي

أطفال

قتلتهم رائحة التفاح !»

وإن لم يكن التجرؤ على السري والمكرس خاصية كردية إلَّا أن الظاهرة مع الشعراء الأكراد اتخذت حضورًا أكثر تجذرًا وتشبعًا كرسا طابع التمرد في عموم منجز الشعر المنثور السوري. فها هو لقمان ديركي يجرد الأب من سلطته في (الأب الضال) حيث يقول:

«يلمع في الظلام

ويأفل في الضوء

وحيثما كان

ستجدينه محاطًا بالكراهية

..

الكلمة على طرف لسانك

الغصة في حلقك

الفكرة الضائعة في بالك

كوابيسك.. أحلامك

والهالة المحاطة بالكراهية

تزينه في المطعم»

من جهته يتجرأ كمال نجم على المحرم الجنسي بتصوير درامي في قصيدته (ليلة فضة) وفيها يقول:

«لم ينم نهداك
لفرط حيائهما
هي المرة الأولى
التي يستندان فيها إلى مخدة عارية
ولحافي
أضناه السهر
هي مَرَّتُه الأولى
التي يفتح فيها صدره
لأنين أنثى
ها سفينتي تلج مياهك المالحة
إن وصلتُ شواطئ الجزيرة
لا تنسي
أزيحي سمكتيكِ الفضيتين عن النبع
ليغتسل بحّاري للمرة الأخيرة
قبل طلوع الفجر
في مياهكِ الحلوة.»

وكان من الطبيعي أن يجد قارئ العربية في هذا المنجز نافذة على الثقافة الكردية، بمعناها التراثي، أو بالمعنى الحياتي المعاش.

فيما يخص المنحى الأول نقرأ لسليم بجوك - الليالي الثملة:

«وَهَن شقائق النعمان.
معاتبات «خجي» التي لجبل «سيبان»
صدى الحفلة الدامعة
وخيانة «سيامند»
سَلَّمَ الليالي الرعناء للخراب الأرعن.
بومٌ مشؤوم
يتحول زعيقًا في تأملات «خلات»
وعلى غرة الليل، تجدل النجوم الوقيعة»

أو دليار ديركي في (في مديح الحدود):

«لازالت رائحة «العندكو» تفوح من بعيد
لازالت آثار الملائكة جلية على الثرى
يعلو ترتيل القرآن بالكوردية
«عين ديوار عاصمة يا نوفا»
لا
اعذريني يا نوفا
اليوم فجرًا، مع الأذان، أمام الأفران
علت همسات النساء، في انتظار خبز الصغار
«يا مبتورة الجدائل، هل رأيتِ أنت أيضًا هيرودوت،
كيف توارى عن أعين العسكر
الرجال أيضًا
أبصروه في مسجد «قاسمو»
يصلي على المسجى الملفوف بالبيرق
وتلاميذ مدرسة أرض الخراب أقسموا أنهم
منحوه أقلامهم ومحابرهم
ليعيدَ تدوين اسم مدرستهم صحيحًا»
لكنها حزينةٌ
الكتب والأقلام
على بوابات المساجد
لأسْوَدِ الحسناوات في أحضان قامشلوكى
قامشلوكى عاصمةٌ اليوم
قامشلوكى عاصمةٌ غدًا
الجنة أشرعت أبوابها
في قامشلوكى».

لكن الأمر لم يخل من إقحام للشأن الكردي، الأمر الذي أدركت أسبابه الشاعرة خلات أحمد فقالت:

«في الكردية أيضًا أتحرر من الواجب الملقى على عاتقي في كتابتي بالعربية، وأعني أن أترك في اللغة الغريبة أثرًا يدل على كرديتي، في الكتابة بالكردية أنا أكتب بالكردية وهذا يكفي لأن أتفرغ للشعر وللشعر فقط».

وكأن المطلوب حشد أكبر كمّ ممكن من الأدلة والشواهد على كردية الشاعر بمواجهة انتماء مزدوج واجهه البعض ثقافيًّا ووجوديًّا، وفي هذا يكتب إبراهيم حسو:

«الشاعر الكردي، مثل جميع الشعراء في العالم، بحاجة إلى عمل إضافي كي يكتب (في أوقات فراغه) ما يجده ممتلئًا في حياته».

هو كما يشير حسو أكثر من انتماء مزدوج، إنه انتماء كوني، كما هو انتماء للتاريخ والأساطير التي توسدتها ذاكرة أبناء المنطقة بغض النظر عن الجذر الإثني، كما نقرأ في (التي من التفاحة وأكثر) لهوشنك بروكا:

«التحية الخضراء

التي راضت بلحظتها عشتار الله

فصول بكاء تموزها»

أما حضور الشأن الكردي العام فكان في بعضه يطرح أسئلة المحيط بغض النظر عن كونه كرديًّا أو عربيًّا. فلا أعتقد أن أحدًا يستطيع الجزم أي القوميتين كان يقصد علي جازو عندما أنشد في (شذرات قصائد):

«من أجل نهار هادئ

كل هذا القتل

كل هذه الكلمات المتعرجة

من أجل نهار بلا خوف

كيف لا يصرخ

دم القتلى في الوجوه»

لكن التأويل يتخفف من أي لبس في قصائد عدة أخر، فنقرأ في قصيدة (الجحيم) للقمان محمود:

«يأتي الظلام

من الأسلاك الشائكة:

فكل معلوماتي عن الحدود

أنها تراقبُ

الآلام المتبادلة

بين الأكراد».

هذا الانتماء المزدوج كثيرًا ما خلف توزعا وتمزقًا وتشتتًا وإحساسًا باللاجدوى والعبث، حيث تتكرر القصائد التي تؤبن أعمارًا مرت دون جدوى، وسنوات فرخت حياة دون حياة.

نقرأ في (ميلاد) لهيمن كرداغي:

«البارحة

أطفأتُ الشمعة الثلاثين

البارحة

قطفت الزهرة الثلاثين

البارحة أيضًا

نصبتُ الشاهدة الثلاثين».

حياة شاقة تدفع بالكردي للهجرة، حيث تمعن المعاناة إيلامًا، كما في (ضحكة أمي) لحسين حبش:

«ـ ترتيل الشوق:

أمي

ثلاثون عامًا، وأنا ما زلت أركض حافي القلب

كلَّما وجدت امراة تلبس فستانًا طويلًا، أو تضع على رأسها شالًا أبيضَ

أناديها: أمي، أمي،

أمي..

ثلاثون عامًا وستة آلاف ميل الآن

منفيًّا من الورد، من إشراقة الصبح ومن وجه الملائكة،

وجه أمي.

ثلاثون عامًا،

كلَّما كتبت عن امرأة، أو كلَّما رسمت صورة لامرأة

أراني أكتب عن أمي، أراني أُلَبِّسُ الصورة ألوان أمي.

ثلاثون كفنًا، ثلاثون قبرًا، ثلاثون...

أداويها بالأمل، بالاطمئنان، كلَّما وضعت رأسي

على صدر أمي».

هجرة تعيد ترتيب الأولويات حيث يضفي الحنين قيمة مفرطة على تفاصيل عابرة أو حتى تافهة. نقرأ في (قصيدة في قطار سريع) لطه خليل:

«هنا في هذه البلاد البعيدة، بلاد الجرمان والبيرة

قرأت حوارًا مطولًا مع هيفاء وهبي ونمت سعيدًا...

حوار مع هيفا، أنساني كل كتابات أدونيس وأبي تمام وماركيز

وخطابات القادة

والجنرالات الذين أرسلوا لي ذكرياتهم عن الحروب التي أبلوا فيها»

أربعون عامًا مرَّت والكردي يحمل صليبه في تيه موحش. فقد صدر في نهاية العام 2011، قرار يقضي بتسوية أوضاع المكتومين وإعادة ما نسل من حقوقهم ومن ضمنها الجنسية السورية.

الأكيد أن ناتج العودة الثقافية الرسمية المعترف بها للأكراد إلى الحاضنة السورية لن تكون كما كانت قبل قرار سحب الجنسية. فقد مرت مياه كثيرة تحت الجسر، لكن المأمول ألَّا يكون تجلي هذه العودة أقل ثراء وإثراء لبلد اشتهر بموزاييكه الاجتماعي والديني والطائفي والعرقي.

المصادر

- نورا صالح (اسم مستعار)، موقع كرد، تاريخ 16/ 6/ 2011.
- شيرين يوسف، مجلة العربي، العدد 564، العام 2005.
- خلات أحمد (نوافذ باكرة)، العام 2009.